

مستويات القراءة في رواية «الخرائط»

للكاتب الصومالي : نور الدين فراح

عندما تتاح للقارئ فرصة قراءة عمل روائي يتميز بالشراء الفنى والدلالى نتيجة إشباعه بعلامات لغوية بتحكم الكاتب فى توجيهها وجهات مختلفة، عندئذ نسطيع أنت نتحدث عن تعدد قراءات النص.

ونحن إزاء عمل روائى متميز كتبه الكاتب الروائى الصومالى نور،الدين فراح باللغة الإنجليزية ونقله إلى اللغة العربية بأسلوب يفيض بالإشراق والشاعرية الكاب سعدى يوسف، ونشرت الهيئة العامة للكتاب فى مصر هذه الترجمة.

وقد سبق أن ألف الكاتب الصومالى خمس روايات، كما كتب قصصاً قصيرة ومسرحيات ونال جائزة اتحاد الناطقين بالإنجليزية فى عام ١٩٨٠ عن روايته «حليب ولبن»

وتبدأ الرواية «الخرائط» ببداية توحى للقارئ لأول وهلة أن الكاتب يكتب سيرة فنية لذات يسميها عسكر. وعسكر هذا يمكن أن يكون الكاتب نفسه، ويمكن أن يكون أى رجل صومالى آخر عاش أحداث بلاده السياسية المؤسفة فى العصر الحديث.

ويصطنع الكاتب شخصية الراوى العالم بكل أحوال عسكر، الظاهرة والباطنة بحثا عن هوته ومن ثم فهو يتحدث إليه منذ البداية، على سبيل المواجهة، بضمير المخاطب، ويكاد يطفى استخدام الراوى لهذا الضمير على استخدامه لضمير المتكلم والغائب فى الرواية بأسرها.

ويبدأ الراوى المواجهة بقوله:

«أنت تشعر من قراءتك المحدودة للأدب بأنك تنتصب إلى أسماء تخطر ببالك، أو تثب على طرف لسانك حين تفكر بصبى اسمه عسكر تتمتع مخيلته الهائلة بعلامات غنية للفضح المبكر، والسبب هو أنك أنت ذلك الصبى»
(الرواية - ص ١٠).

فشخصية عسكر من البداية بعموميتها وخصوصيتها؛ أما عموميتها فترجع إلى أنها تنسب إلى الأبطال الجديرين بأن تكتب عنهم سيرة ذاتية، الذين تتحدد ملامحهم بعلامتين بارزتين، الأولى وعيهم المبكر بانتمائهم إلى نخبة من الناس المكلفين بتغيير عالمهم، والثانية تمعهم بخيلة هائلة تكشف عن علامات غنية للنضج المبكر. وأما خصوصيتها فتتمثل فيما يضيفه عليها العمل الروائي من ملامح خاصة محددة.

ويؤكد الراوي هذا التميز لشخصية عسكر بقوله إثر ذلك مباشرة: «حين تجلس تفتح عينك في عينيك شأن العميان، ثم تخمد روحك، أي أنك لا تصيح أنت نفسك، وبمعنى ما لست نفسك تماماً. تأخذك رحلتك عبر مجازات أبواب عديدة، فتتمكن من أن تستذكر أحداثاً وقعت قبل وجودك أنت بزمن طويل». (الرواية ص ١١).

إنها علامة من علامات النضج المبكر تتمثل في أن الذات ترى في إنجازاتها التي تحلم بها من البداية بتحقيقها حلقة تربط بين السابق واللاحق، ومن ثم فإن هذا الوعي المبكر يستنطق الحاضر وما يمكن أن يأتي به المستقبل عن طريق العودة إلى قلب الماضي السحيق.

ويخطط الكاتب فنية القص في الرواية على أساس الامتدادين: الرأسى والأفقى للسرد في آن واحد، وتداخلهما. أما الامتداد الأفقى فهو الذي يمتد زمنياً بما ينتقيه الكاتب من أحداث من سيرة عسكر منذ ولادته إلى أن يكبر ويكتمل نمو وعيه بالزمان والمكان وعلاقته القدرية بهما. وأما الامتداد الرأسى فهو الذي يحدث تقاطعات متعددة مع الامتداد الأفقى، ينجم عنها إمكانية قراءة النص قراءات مختلفة.

وأولى هذه القراءات، القراءة الأسطورية لميلاد عسكر.

لقد ولد عسكر يتيماً، شأن الأبطال الأسطوريين الذين يولدون أيتاماً من الأب، ولكن يتم عسكر كان مضاعفاً، إذ ولد يتيم الأب والام معاً. ولكن الله عوضه - كما يحدث مع الأبطال الأسطوريين كذلك - بأم أخرى ترعاه حتى وفاتها، وهي «مصر».

يقول الراوي في مواجهته المستمرة لعسكر: «أخبرتك أنت (أي مصر)

بالرغم من أنك صغير على الفهم، أسراراً عن والدك، ما كان أحد مستعداً لإخبارك بها، أخبرتك لماذا كانت أمك مختبئة في تلك الحجرة حيث وجدتكما هي أنتما الاثنين، ولماذا ماتت ميتة سرية تماماً، كما همست في أذنيك أشياء عن أبيك الذي مات قبل ولادتك بأشهر في ظروف غامضة، بالسجن، بسبب أفكاره ومثله. التجأت أمك إلى غرفة بالحوش الخلفي من منزل شخص غني، وهناك ولدته مختبئة. كان من الممكن أن تموت من البرد الذي تعرضت له لو لم تات «مصرا» مصادفة. كنت محظوظاً على أى حال، لأن «مصرا» وجدت الحجرة التي كنت فيها، وهي أفضل مكان للاختباء من «أوادان» الذي كان يلح عليها بمحاولات التقرب منها. كانت الحجرة مفتوحة فدخلتها متعثرة وأغلقت الباب وراءها حالاً. ولم تعرف إلا فيما بعد، أنك وأمك كنتما هناك، أنت حى وأمك ميتة. إن شهادتها مستظل الوحيدة التي على المرء أن يأخذ بها. إنها ستصر على أنها لم تعرف من هو أبوك إلا فيما بعد .. اللهم أن ست عشرة ساعة أو نحوها، كانت مضت قبل أن يبنأ الأهل بوجودك وبموت أمك. في هذه الساعات تمت الصلة بينك وبين مصرا» (الرواية ص ١٥).

وبهذا تكتمل الحلقة الأولى من حياة الطفل الأسطوري، وهي ولادته يتيماً وروحياً. ثم تمحه القدرة البديل للأم الذي يحتضنه ويرعاه. وتكتمل الحلقة الثانية بأن ينشأ الطفل غير مرغوب فيه، فقد ينفى أو يبعد على نحو ما.

قالت لك مصرا ذات ليلة: أريد أن ترى الأمر هكذا، أنت أعمى وأنا عصاك، وأنا أقودك إلى مركز الأنشطة البشرية، مظهرك يجعل كل واحد قانطاً، يجعلهم يخفضون درجة كلامهم، وأنت أيضاً صرت وأعياناً تفسر صمتهم باعتباره وسيلة لإستبعادك. أنت تحس بأنك مراقب وبأنك محروم من ولوج عالمهم، أنت الأعمى وأنا العصا، ومعاً نفقاً الدمى، نفقاً ضميرهم».

(الرواية ص ٢٦).

على أن الكاتب بعد هذا لا يمتد بحياة البطل إلى الحلقة الثالثة من حياة البطل الأسطوري، وهي التي من المفروض أن تحكى عن الإرهاصات الأولى لبطلته، بل يحدث، على عكس ذلك، تقاطعاً يسلب الطفل أسطوريته . ويرد هذا الجزء الأول من الرواية، حيث يستيق الكاتب الأحداث التي سترد فيما بعد،

من خلال عملية التذكر التي تؤدي وظيفتها الفنية في قطع السرد الأفقي. لقد تذكر عسكر خطاباً كان قد أرسله إليه خاله عندما كان عسكر يتلقى العلم في مدرسة قريبة من مقاديشيو، حيث يقطن الخال المشقف هلال وزوجته صلاتو. وكان الخال يرد في هذا الخطاب على توهم عسكر لبداية أسطورية لحياته .. قال الخال هلال: «لكن الحقيقة التي تغلف بداياتك بالأسرار والغموض. شأن ولبدي الحكايات البطولية في أفريقيا وأوروبا وآسيا، هذه الحقيقة لا أهتم بها كثيراً؛ هل نجحت مثل نبات في الأرض؟ هل ولدت لتسعة أشهر أو لسبعة؟ هل تشارك في مزاجك أمثال سونياتا أو مويندو، وكلاهما من أبطال الحكايات البطولية الأفريقية؟ يقال مثلاً إن سونياتا بلغ الكبر في الثالث من عمره. وتروى الحكايات عن مويندو أنه اختار أن يولد، لا من الرحم، وإنما من الإصبع الوسطى، ثمة أطفال حكايات يتم الحمل بهم وميلادهم في يوم واحد، وآخرون يحتاجون إلى مائة وخمسين عاماً كي يولدوا .. وهناك سمة عامة في الأطفال البطوليين، وهي أنهم يولدون جميعاً حامليين للأسلحة. وأنت يا عسكر ملح باسمك .. اليس كذلك؟ ... أنا متأكد من أنك سمعت بأبطال ولدتهم جبال أو أنهار أو أسماك أو حيوانات أخرى .. ويبدو لي.. أن هذه الأساطير تشير إلى النقطة ذاتها مراراً وتكراراً؛ إن ذلك الشخص المولود هكذا يحتوي في ذاته أو داخلها خصائص مقصورة على الرموز، حسناً، إلى أين نصل من هنا؟ الكل شك». (الرواية ص ٣٤).

الكاتب إذن يتعمد أن يعطل القارئ عن الإمتمرار في القراءة الأسطورية لسيرة الطفل البطل تمهيداً لأن يفتح له المجال لقراءة أخرى يركز فيها على النمو المتصاعد لرعى الطفل. ولا يتحقق هذا النمو المتصاعد إلا من خلال علاقة الطفل بمصر. وهنا يحدث قطع جديد لاستمرارية سيرة عسكر، يمهد لقراءة أخرى يتوقع لها القارئ أن تكون قراءة نفسية، حيث إنها تنطلق من علاقة عسكر اللصيقة بمصر.

وتبرز خصوصية هذه العلاقة في التحولات المادة في حياة عسكر. ومن هنا كان التوازي الملمح بين سيرة عسكر والقراءة النفسية لعلاقته بمصر؛ ففي مرحلة طفولة البطل، كان ارتباطه بمصر ارتباطاً جديداً. وقد ظل هذا الارتباط الجدي حياً في وعي عسكر الكبير. وكثيراً ما كان يعبر عنه بدرجة من

الاشتهاء. يقول عسكر: «مصر التي لفتني أخيراً في الدفء الندي بين ثدييها حتى غدوت ثدياً ثالثاً؛ مصر التي كانت تتدحرج على ظهرها وبعبداً عن غطائنا المشترك لأجد نفسي في مكان ما بين ساقها كأنى ساق ثالثة». (الرواية ص ٣٩).

وظل عسكر غير واع لذاته إلا من خلال مصر حتى بلغ الخامسة من عمره. وحتى هذا الوقت كان بمثابة الظل الذي لا يتجاوز الفضاء المحيط بجسدها.

وفي سن الخامسة انتزع عسكر من حضنها انتزاعاً ليبدأ حياته في مدارج العلم والمعرفة. حملة عمه «قورح» إلى المعلم «أوادان» وقال له: «ليس من رجل في البيت الذي يمكنه، وعلى المرء أن يبعد الأولاد عن خبث النساء» (الرواية ص ١٢٠). وكان أوادان كان يحس بفطرته مدى خطورة العقدة الأوديبية إذا استمرت العلاقة غير سوية بين الأم (أو من يقوم بدورها) وابنتها.

ويعد هذا الإبعاد طقس العبور الأول لعسكر؛ إذ كان بداية الانتقال التدريجي من مرحلة الالتصاق الجسدي بمصر إلى مرحلة الانفصال عنها.

أما طقس العبور الثاني فكان من خلال عملية الختان له: «ساحيا في منطقة الألم أسبوعين أ بعد الختان، أم احيا في أرض الوحدة منفصلاً إلى الأبد عن مصر. وربما أعطيت سريري لي أنام فيه وحدي بعد ذلك. (الرواية ص ١٢٦).

وإذا كان الختان أصبح يمثل حاجزاً بينه وبين مصر، فإن اللوح الذي تعلم عليه عسكر القراءة والكتابة من قبل، كان يمثل في مرحلة العبور الأولى، الفاصل الحسي بينه ومصر. وكان عسكر سعيداً بهذا اللوح، وكان لا ينام إلا وهو يحتضنه. يقول: «واضح أن اللوح صار عائقاً دون احتضانها لي احتضاناً مريحاً، ما دام طرف اللوح الحاد يضغط بشدة على حوضها». (الرواية ص ١٢٧).

وعندئذ صار وعى عسكر الداخلي ينمو نمواً مطرداً. وقد صحب هذا تهمك بعض الرموز في لا شعوره لتطفو على السطح في منطقة الوعي، ويتكرر ظهورها في مجالات مختلفة، ومن ذلك رمز الدم؛ لقد استكن رمز الدم في

لاشعوره منذ وعيه بولادته التي حكى له عنها مصراً؛ فقد وجدته ملطخاً بدم الولادة، وكان حياً وأمه ميتة. وكان عليها أن تغسله بكل عناية لكي تتمكن من احتضانه نظيفاً خالياً من آثار قسوة الماضي الغامض.

ومرة أخرى يعتمل رمز الدم بداخله، عندما كان يراقب تدفق الدم من مصراً شهرياً.

وعندما كان يراقب تغير مزاجها في مدة الحيض، وكيف أنها كانت ترسله إلى صديقتها «كارين» لترعاه طوال تلك الفترة الحرجة.

ومرة ثالثة يتهيج رمز الدم بداخله عندما وجد نفسه، بعد الختان، محاطاً ببركة من الدماء التي كانت إيماناً بانفصاله جدياً عن مصراً.

ويظل رمز الدم يتضخم داخل عسكر ويطفو إلى وعيه فيجده مقترناً بمستقبله. ولكن هذا المستقبل لم يكن ليفصل عن مصراً بأي حال من الأحوال. يقول: «الماء أقرنه بالفرح لكنني أقرن بالدم شيئاً آخر... المستقبل كما تقرؤه مصراً». (الرواية ص ٥٥). وكانت مصراً تعرف «كيف تقرأ الطالع من ارتجاف اللحم، الأحشاء، الشحم، المصران، كل قطعة أو شريحة من اللحم بالنسبة لها، كانت مثل راحة اليد لقراءة الكف». (الرواية ص ٥٤). ولقد تنبأت له ويدها ملطختان بالدم بأن مستقبله سيكون مقترناً بالدم.

وعندما يدخل عسكر مرحلة العبور الثالثة في علاقته بمصراً، وهي مرحلة الرغبة في الانفصال النفسى التام عنها، ويعجز عن تحقيق ذلك، يفكر في أن يقتل مصراً. وعندئذ يصل التصعيد لرمز الدم إلى ذروته، أي عندما يتضخم ليصل إلى دافعه الأصلي وهو القتل، قلت لها ذات يوم: إن لم تكوني جثة جعلتك جثة. وسألتني منزعجة: لكن.. لماذا؟ قال لها: أو أقتلك لتكوني جثة مثل أمي. قالت: تقطنني؟ لماذا؟ ماذا فعلت؟ (الرواية ص ٥٧).

ويعلق عسكر على هذا الحوار قائلاً: «وجدت شرح الأمر عسيراً جداً على، بالطبع لم أكن لأكتلها بسبب كرهى إياها. المسألة غير ذلك، غير ذلك تماماً، قصدت أنا، في الموت فقط يمكن أن نتحد. هي وأنا فقط في الموت.. موتها.. يمكن لى ولها أن تتصل قرابة، آنذاك فقط، أشعر أنها أمي وأنا ابنها، وآنذاك، آنذاك فقط سأجد نفسى وحيداً موجوداً وحقيقياً.. نعم فرداً له حاجاته الخاصة به، لا أريد أمومية تهدى لستها الصرخة الطفولية في المرء» (الرواية ص ٥٧).

والى هنا نستطيع أن نقول، إن القراءة النفسية قد اكتملت، وهي لا تكاد تتجاوز، على المستوى القريب، علاقة الطفل الفردية بأمه من ناحية الاستماع بالاتصال الجسدى بها، وعلاقة الطفل اليومية بأمه، عندما يقتلها نفسياً ليعلن استقلاله عنها فى سبيل الشعور باكتمال شخصيته.

لقد مهدت مراحل العبور الثلاث التى مر بها عسكر أن ينقصل عن مصرًا. ولم تكن مصرًا تريد أن تفقد فى طريق استقلاله عنها، بل ربما كانت تتمنى له هذا الاستقلال، فى سبيل تحقيق ذاته وتأكيد هويته، فعندما سألها العم فورج عن الهدية التى يمكن أن يشتريها لعسكر بمناسبة ختانه، قالت له: «كرة أرضية أو أطلس للعالم، إنه يحب زرقة البحر، وكتاب مصور عن الخيل والطيور .. أرجوك، آته بكرة أرضية وخرطة للبحار والمحيطات» (الرواية ص ١٣٤). ويعلق عسكر على مطلبها هذا له قائلاً: «لكننى امتننت لمصرًا، امتننت لأنها اختارت أن تقدمنى إلى عالم شعرت فيه بأننى أسعد إنسان مذك». (الرواية ص ١٣٤). فهل كانت مصرًا تريد لعسكر أن ينقلى من أسرها لينفتح على العالم ساعياً لتحقيق ذاتيته؟ إن النصوص تتكرر فى مواطن مختلفة بصدد هذه النبوءة ملقياً بعضها الضوء على بعض، ومكلاً بعضها بعضاً. قالت مصرًا لهديقها كارين ذات يوم: «سوف يسافر» وتعنى بطبيعة الحال عسكر، فلما سألتها كارين: «وآنت، هل ستسافرين معه؟» قالت: «سألتحق به فيما بعد، لكن ليس للتو. يجتمع شمله أولاً مع خاله. الترتيبات تتم. لكن أرى الموت والمصيبة والخراب». (الرواية ص ١٦٥). ولقد تحققت النبوءة، فيما بعد، فانقصل عسكر عن مصرًا فى «كلافو» ورحل إلى خاله «مقاديشيو» ليدرس فى جامعتها. وهناك انضم إلى جبهة التحرير الصومالية لتحرير أوجادين المحتلة من قبل الحبشة. وفى ساعة القتال رأت مصرًا بحاستها السادسة الموت والمصيبة والخراب.

وهنا تفتح الرواية المجال لقراءة سياسة تاركة الأبواب شبه مفتوحة للقراءة الأخرى، ويخضع القارئى لسلطة النص فى البحث عن تأويل جديد لشخصية مصرًا وتأويل آخر لعلاقة عسكر بها، لقد سأل عسكر مصرًا ذات يوم عن معنى اسمها، فقالت إنه يعنى الأرض، أساس الكون، وفى نص آخر، يحكى الراوى عن علاقة عسكر بمصرًا ويقول: «ها هى تعلمه الأشياء، تسمى كل شىء باسمه،

تلك هي السماء، وهذه هي الأرض، وها هو ذا يشير إليها مراراً جواباً عن سؤال: أين الأرض؟ مع أنه يشير بصورة صحيحة. إلى السماء كلما سألته: أين السماء؟ كانت تنفجر ضاحكة، قائلة، إنها أمه وليست الأرض بينما إصبعه وربما يده كانت تأخذ شيئاً من التراب لتأكله». (الرواية ص ١٨٠).

إن مصراً بصريح العبارة هي الأرض. وإذا كان هذا يفسر عشق عمكر الشديد لها ولجسدها، فإن التساؤلات لا بد أن تثار حول ضرورة الانفصال عنها، بل حول التفكير في قتلها. ويحتشد النص على سبيل التبشير في هذا الموضوع مستخدماً شتى أساليب المراوغة والحيل الفنية، محققاً بذلك أبعاداً جمالية للنص يستمتع بها القارئ في حد ذاتها وينشغل على الدوام بامتخااص الدلالات المتصارعة حول هوية مصرا من ناحية أخرى.

لقد أخبرت كارين (صديقة مصرا) عمكر عندما لحقت به في مقاديشيو بأنه «كان هناك جندي أثيوبي شاب غرمت به مصرا، ويقال إنها كانت تعيش معه وأنه كان يدعوها مصرات بدلاً من مصرا. وعندما سمع هذا الاسم جن جنونه وتساءل: «ماذا يعني تغيير هذا الاسم؟» ورد بأنه: «لا يعني سوى الخيانة». (الرواية ص ٢٤٧). ذلك أن اسم مصرا، كما شرحت له من قبل يعنى الأرض، أساس الكون. ولكن هذا الجندي الأثيوبي (البديل الكنائى لاثيوبيا التى كانت تحتل أوجادين الصومالية وتحاول أو تفقدتها هويتها). غير هذا الاسم إلى مصرات. وفي تغيير الاسم تغيير للهوية.

وكثيراً ما يدس الكاتب في ثنايا السرد معلومة تاريخية صريحة ليذكرها القارئ فيما بعد ويضعها إلى جانب الاستعارات والكنائيات الفنية فتؤكد له البعد الدلالى لها. والمعلومة التاريخية التى تلتف حول خيانة مصرا مع الجندي الحبشى وتعانقها، تذكرها الصبى عمكر وهو يتعلم القرآن والقراءة عند أوادان. قال: «فى سنة ١٩٥٦ وجه الامبراطور هيلاسلى خطاباً إلى صومالى أوغادين قال فيه: اذهبوا إلى المدارس يا شعبي، فهناك تسنح لكم فرصة جيدة لتعلم قراءة الأمهرية وكتابتها. آنذاك فقط تكونون قادرين على تعلم مختلف المناصب فى إدارة الحكومة المركزية. وتذكروا أن عدم معرفة الأمهرية التى هى اللغة الرسمية لاثيوبيا، سيكون حاجزاً كبيراً أمام التقدم الاقتصادى والارتقاء بالفرد والجماعة».

وهلق عسكر على هذه الحقائق السياسية بقوله: «لست متأكدًا من سبب احتفاظي بقصاصة الصحيفة التي ضمت خطاب ١٩٥٦ الشهير الذي وجهه الامبراطور هيلاسلاسى إلى شعب أوغادين. فى الحاشية أقرأ خط الخال هلال: امر ثورى، اليس كذلك؟ ان تثار للفة شعبنا وثقافته وعدالته، ان تثارا أن تكون انتقامياً» (الرواية ص ١٢٣).

ومع ذلك فإن اللوم لا يقع على المنسلط الأجنبى الغاشم، بل يقع على الشعب الذى استسلم له وسمح له بأن يحمله على تغيير هويته. ولهذا وصمت مصرًا بالخيانة، وهى كناية أخرى زحزح فيها الراوى الإثم من الفاعل وهو الشعب إلى المفعول به وهو الوطن. ومع ذلك يظل الراوى يؤكد خيانة مصرًا، لا لشيء إلا ليعمق حزنه بمن أحبها وتوحد معها. يقول: «وقيل لك إنها لا تستطيع المشى فى شارع إلا والرجال يغازلونها والعيون الشهاة تخترق جسدًا حتى قرارة الروح». (الرواية ص ٩٠).

وروقت مصرًا ترد عن نفسها الخيانة، وتعلن رفضها زحزحة الإثم من الفاعل إلى المفعول به، فما ذاك إلا حيلة فنية مارسها الشعراء من قبل. قالت لعسكر: «تعرف ان صوماليا فى عيون شعرائها امرأة اعتادت أن تخون رجلها الصومالى. الا تعرف؟ أوما برأسه نعم. وقالت: أنت تعرف القصيدة التى يرى فيها الشاعر صوماليا امرأة ترتدى بر وتتزوج بأذى العطور. وهذه المرأة تتقبل كل العروض التى يقدمها الرجال الخمسة الذين خطبواها، تذهب معهم وتنام معهم، وتحمل من كل واحد منهم طفلاً سمته حسب أبيه». (الرواية ص ١٤٢).

أما هؤلاء الرجال الخمسة فإشارة إلى الدول الخمس التى اقتسمت الصومال فيما بينها، بحيث أصبح أن هناك الصومال الفرنسى والصومال الإنجليزى، والصومال الإيطالى والصومال الكينى والصومال الحبشى.

وتقتضى حبكة اللعبة الفنية أن تظل مصرًا تدافع عن نفسها، على الرغم من أن القارئ قد ثبت فى ذهنه أن مصرًا هى الصومال. فقد سمعها عسكر وهى تقول له: «أرجو أن تهتم بما أقوله لك الآن. أنا لم أحن، أنا بريئة من الجريمة، أنت الشخص الوحيد الذى يهمنى أن يعرف الحقيقة الصادقة. ليذهب الآخرون أينما شاعوا، وليقولوا ما يقولون؛ لن أهتم» (الرواية ص ٢٥٨).

وكانت آخر كلماتها له: «كل ما يشمناه المرء أن تسكن ذكراه في رأس شخص ما. ففى أى رأس ساقيم؟ رؤوس من أماتونى؟ أم رأسك أنت؟» (الرواية ص ٢٩٨).

إن عسكر لم يجد أحداً يحتضنه منذ أن فتح عينيه على الدنيا سوى مصرا. وكان وهو طفل ينام ويتقلب معها فى سوز واحد، ووجد نفسه بالنسبة إليها ثدياً ثالثاً وساقاً ثالثة. ومصرا هى التى أبقظت فى أعماقه معنى الدم وطعم الدم حتى تحول ذلك إلى الرغبة فى الانتقام من كل من انتهك حرمة مصرا.

ولقد أصر الكاتب على أن يجعل مصرا فاقدة لهويتها، إلى درجة كثيراً ما كان يتساءل عن هى. وكانت الإجابات متشعبة؟ إما أنها تنسب إلى شعب الأورمو الفقاقد الهوية، الذى كان يعيش فى أطراف اثيوبيا، وإما أن محارباً اختطفها وهى فى السابعة من عمرها، ولم تعرف لها أهلاً بعد ذلك .. ومهما يكن سبب فقدانها لهويتها، فهى فى النهاية تمثل الضياع والفقدان لأهم ما يعتز به الإنسان ألا وهو الهوية المتعينة فى الزمان والمكان. ولهذا فقد سأل عسكر خاله فى النهاية قائلاً: «لو تقدمت مصرا بطلب، فهل هى مؤهلة للحصول على أوراق هوية تجعلها، قانوناً وإلى الأبد، صومالية؟» (الرواية ص ٢٣٢).

ولكن مصرا لم تستطع أن تحصل على أوراق الهوية نظ ما دام الصومال مشتتاً ضائعاً، ومن ثم كان تشبها بعسكر الذى يبدو أنه كان الوحيد المشغول بهمومها، إذ لم تكن همومها سوى همومه. ولم يكن له هم شخصى أبعد من ذلك. ولهذا فقد لحقت به فى مقاديشيو، كما سبق أن تنبأت بذلك، لا لتناضل معه ضد كل من أفقدها كرامتها، بل لتكافح ضد المرض. لقد دخلت مصرا المستشفى لتعالج فى غير الغراء. وهناك ماتت مصرا، وتقرر طرح جثتها فى البحر. ولكن عسكر لم ينس أن ينتزع قلبها ليحتفظ به معه إلى الأبد، لعله يستطيع، من خلال هذا العضو الباث لنبض الحياة، أن يعيد مصرا مرة أخرى حياة سليمة ومعافاة وكاملة الهوية، على نحو ما يحدث مع الأبطال الأسطوريين.

حقاً، لقد اصنعت القراءة السياسية كل القراءات السابقة عليها، ومع ذلك، فإن القارئ يصر على وجود هذه القراءات منفصلة عن التأويل السياسى

بعد أن حفرتها اللغة في نفسه واستمتع بها الاستمتاع كله. فهو لن ينسى ميلاد الطفل الذي ظلمته الدنيا منذ خروجه من بطن أمه؛ وهو لن ينسى تلك العلاحة الكونية بين امرأة وطفل فذفت بهما الحياة غريبن فيهما؛ وهو لا ينسى الاستحضار الدائم لمصرًا بجسديتها الغائرة التي لم يسطع عكسها فكاكاً. وربما أصر القارئ على أن يظل متمسكاً بصورتها المحشورة في نفسه، لامرأة كونية تمثل فيض الأتوثة ونبع الحنان.

ولأن مصرًا هي الصومال الموزع بين أكثر من مستعمر، ولأن كل دولة مستعمر جزءاً منه تفقده هويته حتى يذوب فيها، كان على عسكر أن يبحث عن خرائط الصومال أملاً في أن يوحد بينها في صومال جديدة وقديمة معاً.

لقد كان عشق عسكر لصوماليا أسراً، وربما كانت الوسيلة الفنية الوحيدة التي يمكن أن يتحقق معها الهدف في استمرار التسلط على القارئ حتى يجعله يهتز لهذا العشق الأسرطن المفقود، والحزن الشديد لفقده، أن يجد عشق عسكر لصوماليا في عشقه الشبقى لمصرًا، ثم ينهي هذا العشق نهاية رومانسية حزينة بأن يجعل مصرًا تموت ميتة الغراء، فلا أحد يطالب بجنتها، بل يقذف بها في البحر بعد أن ينتزع عسكر قلبها ليحتفظ به قيمة تعينه على الكفاح في المستقبل من أجل صوماليا جديدة مبراة من كل عيب.

وربما اكتشف القارئ هذا الرمز في وقت مبكر من قراءته للرواية، إنه يظل واقعاً في أسر هذه القراءة الاستعارية الفنية ولا يميل قط لזحزحتها إلى الخلفية لكي تصدرها التاويل.

والتاويل هنا ليس سوى خطوة في سبيل الفهم. أما فنية الرواية بأسرها فتتمثل في هذا التمكن من حرفية الصنعة الروائية التي تتيح الفرصة للقارئ لأن ينتقل بين مستويات متعددة للقراءة، كل منها له حضوره الكامل؛ فهي تتبادل مواقع السرد مع بعضها بعضاً بحيث يظل كل منها محتفظاً بوجوده حتى آخر صفحة في الرواية. ثم هي، من ناحية أخرى، تفرض ضرورة تواجدها مجتمعة من حيث إن الموضوع أكبر من أن تنتج قراءة واحدة ذات بعد واحد.